فرانتز فانون والتوجه الفكري

Frantz Fanon and the Intellectual Current

طالب الدكتوراه: طاهر سلت

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

taharselt@yahoo.fr

– **الملخص**:

يُمثل "فرانتز فانون" مفتاحاً للحالة الانتقالية، أي الانتقال من الاعتراف المشوّه إلى الاعتراف الحقيقي، وأنّه شخَّص تشخيصاً نقدياً ذلك السلاح الذي يستعمله المستعمر والمتمثل في فرض صورة نمطية على المستعمرين، وبيّن أنّهُ لكي يتحرّر المستعمَر عليه أن يُحرّر نفسه من تلك الصورة الدونيّة والمشوّهة،وهذا ما انتجه "فرانتز فانون في كتابه: "معذبو الأرض"، ولم تلتفت إلى بقية كتبه ونصوصه الأخرى، وينطبق ذلك على معظم القراءات التي أُنجزت في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، وكذلك على فلاسفة الاعتراف الذين اهتموا بفرانتز فانون، وبخاصة الفيلسوفين "شارل تايلور" و"إكسال هناث".

– **الكلمات المفتاحية**: فرانتز فانون؛ المستعمَر؛ "معذبو الأرض".

Abstract:

Frantz Fanon is a key thinker of colonial studies. He focuses of transitional situations where moving from blurred to true recognition is highlighted. Fanon uncovered the colonial hidden strategy of typifying the colonized into stereotyped images. The colonized is under the obligation of freeing themselves from these degrading mental self-images made by the colonizer. This is the main of Fanon's "The Wretched of Earth". The study aims at drawing attention to Fanon's contribution as well as those of Charles Tylor and all the recognition philosophers.

Keywords:

Frantz Fanon. The Colonizer. "The Wretched of Earth".

مقدمة

إنّ الطبيب النفسي والمُفكر والمُناضل والكاتب المارتينيكي "فرانتز فانون" يُعتبر رجلاً ثورياً تجاوز هويته الأولى التي ذاقت به إلى هوية أوسع تمتدُ نحو العالمية، والتي فرضت عليه بأنّ يتبنى الدفاع عن المظلومين والمقهورين أينما وجدوا، وذلك عندما تيقن بأنّ الاستعمار الغاشم ماهو إلاّ آلة قمعية تعمل على اضطهاد الشعوب المُستعمرة واستغلالها، ولهذا فإنّ "فرانتز فانون" الرجل الثوري عبّر بقناعة خالصة عن إيمانه بأنّ العنف هو الخيار الوحيد الذي يجبُ أن تسلكهُ الشعوب المقهورة والمغلوب على أمرها للتحرّر من الاستعمار الغاشم وسطوته، وبمأنّ إرادة الكفاح والتحرّر تستوجب إنتهاج أسلوب أنجع بعيداً عن الخطاب الأجوف، لهذا اعتبر "فرانتز فانون" أن مُمارسة العنف ضد المستعمر الموسوم بممارساته الوحشية تعدُ تطهيراً نفسياً للمقهورين والمظلومين و ينهي حالة الإحساس بالخوف والدونّية، وتُحقّق قدر من الثقة بالذّات والإيمان بها، وإن حدة "فرانتز فانون" الرجل المعادي للاستعمار بلغت أقصاها، إلى درجة أنّه لم يجد إلا العنف كأسلوب للتعامل مع الاستعمار الغاشم .

-"فرانتز فانون" البيئة والحياة والتوجه الفكري :

1-"فرانتز فانون" البيئة والحياة :

1-1-البيئة الجغرافية والاجتماعية :

تقع جزيرة "المارتنيك" مسقط رأس "فرانتز فانون" في جزر الأنتيل، أوما يُطلق عليها بـ:"جزر الكرائيب"[1]، وهي جزر صغيرة متتابعة بأمريكا الوسطى[2]، إكتشفها كريستوف كولمب سنة 1493م، وسماها المارتينيك، لأنّها اكتشفت في عيد القديس مارتان، حيث تُطل من الشمال على قناة عرضها حوالي ثلاثين كيلومتر، يفصلها عن جزيرة "الدومنيك"، و من الجنوب على قناة أخرى تفصلها عن جزيرة سان لوسي (saint-loucie)، يحدُّها من الشرق المحيط الأطلسي، ومن الغرب بحر الكرائيب، تبلغ مساحتها حوالي ألف ومائة كيلومتر مربع، وهي بذلك تحتل المرتبة الثالثة من حيث المساحة من مجموع جزر الأنتيل[3]، قُدّر عدد سكانها عام 1987م حسب الإحصاء الرسمي الفرنسي حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة، بكثافة سكانية تقدر بـ: ثلاث مائة وسبعة وثلاثين نسمة في الكيلومتر المربع الواحد، حيث تبعد عن فرنسا بحوالي: سبعة آلاف كيلومتر، يقطن بها الزنوج و هم الهنود الكراييب إضافة إلى الفرنسيين، حيث يدين معظمهم بالديانة المسيحية.

أما مُناخها فيتميز بفصلين فقط، شتاء جاف منعش، وصيف ممطر وساخن، إضافة إلى المدّ والجزر والزلازل والأعاصير التي تُحدث الكوارث غالباً[4]، و جزيرة "المارتينيك" هي إحدى المستعمرات الفرنسية، إذ احتلها الضابط الفرنسي "بيار بيلان دسنامبوك" "pierre belain d'esnambuc" سنة 1635م، وجعل عاصمتها سان بيار ، و بقيت كذلك إلى غاية 1802م، وهو تاريخ تدميرها على إثر إنفجار بركان جبل "بيلي"، فنُقلت العاصمة إلى "فور دو فرانس"، أما سكانها الأصليون فقد أُبيدوا عن آخرهم من قبل المُعمرين، و عُوّضوا بالأفارقة السود، الذين جُلبوا إلى هذه الجزيرة في عهد "جاك ديباركي"[5]من أجل العمل في مزارع السكر والبن والموز لحساب الأوربيين، ذلك أن الهنود الكرايبب لم يتحملوا مشقة العمل في تلك المزارع ، فتزايدت تجارة الرقيق و ازدهرت، إذ كانت البواخر تأتي مُحمّلة من إفريقيا بالسود الذين كانوا يُصطادون كالحيوانات[6]، وبقيت الوضعية على حالها(استغلال الأبيض للأسود) حتى تم إلغاء الرّق، بعد مرسوم: 27 أفريل 1848م في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية، وقد احتاجت المارتنيك إلى شهرين كاملين حتى تصل إليها أخبار ذلك المرسوم.

وفي 22ماي1848م، كانت آخر ثورة للعبيد ضد الرّق، و أصبح ذلك اليوم يوم عطلة مدفوعة الأجر في المارتينيك، منذ وصول اليسار الفرنسي إلى السلطة سنة 1981م، ونتيجة لذلك النظام الذي ساهمت فرنسا في تكريسه لمدة أكثر من قرنين، كانت تلك الجُزر عموماً وجزيرة الماتينيك بوجه خاص تعاني التخلف والفقر والاستغلال والحرمان والتبعية للاستعمار لفرنسا، على الرغم من أنّها كانت تملك بعض الموارد الطبيعية، وشهدت الجزيرة من حين لآخر ثورات للمطالبة بالمساواة، وبعد الحرب العالمية الأولى اتخذت فرنسا مجموعة من التدابير لإيجاد نوع من التقارب الشكّلي بين سكان تلك الجزيرة و بين الفرنسيين، وقد تمّ القضاء على تلك الثورات التي كانت تنشب من حين إلى آخر[7]، فوفّرت مثلاً: حق الدراسة لكل أطفال المارتينيك، وحق الغذاء واللّباس، ومنحت الأشخاص العاطلين عن العمل منحة خاصة، ولكن التدابير لم تدم طويلا فسلطة الرجل الأبيض على الجزيرة حالت دون تطبيقها[8]، ذلك أنّها كانت تُسيطر عليها أقلية بيضاء لا يتعدى أفرادها ألفي نسمة من مجموع السكان الذين الملقبون:بالبيكي(BEKEI)*، فسيطروا على الممتلكات ونهبوا الثروات، واحتكروا البنوك و المزارع و أرباح صناعة السكر، ولم يختلطوا بالسكان و حافظوا على الزواج بينهم[9].

وأما إدارياً فكانت هذه الجزيرة عمالة فرنسية، تشتمل على ثلاث دوائر وأربع و ثلاثين بلدية ينتخب رؤساءها من قبل الأهالي، أما الأمن و الإدارة فتُترك للفرنسيين فعانت هذه الجزيرة من الفقر و الحرمان، إذ كان سُكانها يعتمدون في معاشهم على بعض الصناعات والموارد المحلية، كتكرير الملح واستخراج الزيت من جوز الهند، والاعتماد على القمح الليّن و الموز، وعلى الرغم من ذلك كله ظهرت برجوازية محلية "زنجية" شكلت الأغلبية التي تؤيد و تدعم الاندماج في الإطار الفرنسي مهملة بذلك الاستقلال الوطني[10]، ولكن في المقابل كانت هناك أقلية من النخبة تُدرك جيداً أن تبعيتها لفرنسا ليست إلاّ شكّلاً من

أشكال الاستعمار، وهو لا يعني إلا الاستغلال والاستبداد والاضطهاد، وأن "الأنتيل" كما ترى هذه النخبة لن تكون بأي شكل من الأشكال فرنسية، حتى لو حاولت ذلك، فالاختلاف جوهري في التاريخ والعادات والتقاليد والماضي، وفي لون البشرة، والاستقلال الحالي–في نظر النُخبة– ليس إلا استقلالا شكّلياً واهماً، ولكن هذه الأقلية لم يكن لها التأثير الكافي لتحقيق الانفصال عن فرنسا، ذلك أن الاعتقاد الذي كان سائداً لدى الأغلبية آنذاك هو أنّ الأنتيلي متفوّق على الإفريقي، و أن الأخير–الإفريقي– هو الممثل الحقيقي للعرق الزنجي وأنّهُ مصدر العبيد، إلى درجة أنهم–الأنتيليين–كثيراً ما كانوا يقولون:" إذا أردت زنجياً فابحث عنه في إفريقيا"، وكان الأنتيلي عندما يُقدّم للمجتمع الباريسي الراقي يؤكد دائماً على أنّه أنتيلي من أصل "مارتينيكي"، بل لقد كان يُعتقد أن الانفصال عن فرنسا معناه الجوع و الضياع[11]، وهنا تظهر عُقدة الدُونية عند الأنتيليين أصحاب البشرة السوداء وتنكرهم لأصلهم الإفريقي، إذ يعتبرون أن كل إفريقي أسود ما هو إلاّ عبد لا يملك حقوقا ولا يتساوى مع الأوربيين البرجوازيين أصحاب البشرة البيضاء.

1–2–فرانتز فانون المولد والنشأة :

ولد "فرانتز فانون" في العشرين من يوليو–جويلية–سنة 1925م، وسط عائلة ميسورة الحال[12]، في بلدة "فور دو فرانس" في جزر (المارتنيك) من عائلة من الموظفين، حيث تميّزت فترة شبابه بالاضطراب، مثل ما كانت عليه حالة الشباب من جيله الذين تأثروا بعواقب الحرب العالمية الثانية في جزر "المارتنيك"، و في سنة 1943م سافر سراً إلى "الدومينيك" الجزيرة المجاورة، ليلتحق هناك بالقوى الفرنسية الحرة التي شاركت في الحرب تحت قيادة الجنرال "ديغول" إلى جانب الإنكليز والأمريكيين ضد النازية وإيطاليا الفاشية، وقد أُرسل بعد تطوعه إلى شمال أفريقيا (و قد مكث فترة في مدينة بجاية) حيثُ كان يتم التحضير لهجوم عن طريق إيطاليا وجنوب فرنسا، و قد شارك مثل العديد من الجزائريين في عمليات إنزال القوات في مقاطعة "بروفنس" و في المعارك التي تلتها .

وفي سنة 1945م أُصيب "فرانتز فانون" بجروح في إحدى المعارك ومُنح وساماً لشجاعته، ثم سُرّح من الجيش فقفل عائداً إلى المارتينيك حيثُ استأنف دراسته وحصل على شهادة الباكالوريا، كما شارك في الحملة الانتخابية للكاتب المارتينيكي الكبير "إمييه سيزار" الذي يُعتبر أستاذهُ، و كان لأفكاره أكبر الأثر على ذلك الجيل من المناهضين للاستعمار[13].

وفي سنة 1947م سافر إلى فرنسا بعد حصوله على منحة دراسية، و في مدينة "ليون" عاش حياة طالب نشيط، و دون أن يهمل دراسته في الطب شارك في المناقشات الفلسفية والسياسية لتلك الفترة، وكان يقرأ كثيراً ويتابع دروساً في الفلسفة، وقد رزق في تلك الفترة بإبنة تدعى (ميراي).

وفي عام 1951م أنهى أطروحته وحضّر لامتحان الداخلية لمستشفيات الطب النفساني، وتزوّج سنة 1952م من فتاة ليونية اسمها "جوزي"، و رزق منها و لداً اسمه (أوليفييه)، وقد أتم تخصصه في الطب النفساني مع الدكتور "توكسيل" وهو طبيب مُجدّد من الجمهوريين الأسبان المُقيمين في فرنسا والذي ترك أسلوبه في العلاج أعمق الأثر في فرانتز فانون[14]، وفي نفس تلك السنة أي 1952م صدر له عن دار (سوي seuil) في باريس أوّل كتاب من تقديم (فرانسيس جانسون) بعنوان: "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" الذي ما لبث أن لفت الأنظار إليه.

وفي عام 1953م نجح في مسابقة الالتحاق (ميديكا Médicat) لمستشفيات الأمراض العقلية والتمس منصباً في مدينة البليدة (جوان فيل) الذي كان في ذلك الوقت من أهم مستشفيات منظومة الطب النفسي.

ولم يكن الطب النفسي بالنسبة لهذا الطبيب– فرانتز فانون– اللاّمع اختصاصاً مثل أي اختصاص آخر، بل أنهُ يسمح له بتحديد و تبيين أسباب الآلام النفسية، و باعتباره منتمياً لمجموعة كبرى من ضحايا الاستعمار، فهو يُدرك أنّه إذا وقع كل البشر ضحايا اعتداءات تمس قدراتهم على فهم حياتهم والتحكم في سلوكياتهم، فإنّ المستعمرين معرضون، زيادة على ما سبق، إلى اعتداءات المعمرين وإلى العنصرية والاجتثاث الثقافي[15]، ولقد أراد "فرانتز فانون" إظهار ما يعرفهُ عن هذا الاستعمار للعيان ومكافحته عن طريق مساعدة الضحايا على تمالك أنفسهم من خلال وعيهم بسبب مرضهم (و هو عمله كطبيب نفساني)، ثم مشاركته في الكفاح ضد الاستعمار (وهو الجانب السياسي من عمله)، وهكذا اندمج "فرانتز فانون" كرجل علم في حركة تجديد الطب النفساني، التي كانت في بدايتها الأولى في أوروبا آنذاك، و كرّس أولى أعماله للتخلص من الأعراض التي تظهر على المغاربة المعالجين في مستشفيات فرنسا.

ولم يكن يتجاوز السابعة والعشرين من عمره عندما أثبت في كتابه:" بشرة سوداء أقنعة بيضاء " تأثيرات العنصرية المُنهكة لشخصية المغلوبين على أمرهم، و كانت قوة الكتاب تكمن في تطرقه للمسألة كاختصاصي وكمثقف (مُلتزم) أيضاً بالتفكير في قضايا المجتمع و بالنقد الفعّال للمظالم، و قد شارك على الخصوص في نشاطات مجموعة المثقفين السود (سنغور، سيزير، رايت، دوس سانتوس، رابمبا نجارا،الشيخ أنتا ديوب، وكثير غيرهم....) الذين تجمعهم مجلة:" الحضور الإفريقي(Présence Africaine)، وقد كانت له أيضاً علاقات وصداقات في أوساط اليسار الفرنسي المثقف في مجلة:" الأزمنة المعاصرة Les temps Moderne "، وفي مجلة "الفكر Espris" ودار النشر" سوي Seuil ".

إذن لم يكن قُدومه إلى مدينة البليدة عام 1953م بمحض الصُدفة، بل إنّه اختار المجيء لكي يفهم في الميدان تأثيرات الاستعمار على الأشخاص، وقدرات المقاومة الشعبية لمواجهة الاستعمار وذلك في واحدة من الأراضي الأكثر تضرراً في ذلك التاريخ[16]، وقد بدأ مُنذ تقلده لمنصبه، يتمرد على الأساليب المستعملة حتى ذلك التاريخ تجاه المرضى، حيثُ بقي أكثر الأطباء على وفائهم ضد الممارسات القمعية التي ندّد بها التيار المُجدد الذي كان "فرانتز فانون" من بين رواده في فرنسا، و يُضاف إلى تلك الممارسات أفعال عنصرية مُبطّنة أو سافرة تجاه المرضى الأهليين.

وعلى هذه الجبهة المُزدوجة تركّز عمل "فرانتز فانون"، فهو يُحرر المرضى من عُقدهم، ويُنظم الورشات، ويهيئ ملعباً ومقهى، ويُنشط فريق كرة القدم و جريدة، ويدرس في نفس الوقت الصدمات التي تسببها العلاقة بين المستعمر والشعب في السياق الخاص للجزائر في ذلك الوقت، ويُحلّل بصفة معمقة حالات ذات دلالة، ويُقيم علاقات تتسم بالثقة مع الممرضين الجزائريين، ويجول في منطقة "المتيجة" لكي يفهم الأشكال التقليدية السائدة في المنطقة وذلك للتكفل بالاضطرابات العقلية والنفسية للمرضى، وقد وقع في صراع مع السلطات الاستعمارية من جرّاء هذه النشاطات، إلا أن ذلك قد سمح له بالاتصال بأهالي البليدة، حيثُ كان يُشارك بحماس كبير في مناقشات نادي السينما، وقد تعرّف على الفنان "عبد الرحمان عزيز" الذي اكتشف معه موسيقى "الشعبي"، وقام بتجارب للعلاج بالموسيقى، وأقام علاقات صداقة متنوعة، و ما لبث أن أثار اهتمام المناضلين الوطنيين المحليين وتعاطفهم[17].

وعلاوة على ذلك فقد كان "فرانتز فانون"، منذ اندلاع الكفاح المسلح على اتصال بجبهة التحرير الوطني، وكانت له نشاطات علنية محلياً (في الفرع المحلي لجمعية " الصدقات الجزائرية " لمساندة المحتجزين)، كما كانت له نشاطات أخرى سرية، حيثُ عهدت إليه المنظمة برعاية الجرحى والمناضلين الذين أصيبوا بصدمات نفسية من جرّاء القمع المُسلّط عليهم من قبل الاستعمار، كما شارك في جمع الأدوية للثوار، وقام المسؤولون المحليون لجبهة التحرير الوطني الجزائرية بإطلاع مسؤوليهم على أعمال وشخصية "فرانتز فانون"، وبذلك أصبح في نهاية عام 1956م على اتصال مع لجنة التنسيق والتنفيذ (C.C.E) التي كانت تنسق النضال بصفة سرية من العاصمة، وقابل عدداً من مسيّريها وقادتها، وقد كانت نهاية هذا النشاط المزدوج في شهر يناير1957م، قُبيل إضراب الثمانية أيام بقليل، وبعد أن أُكتشف أمرهُ بعث برسالة استقالة إلى الحاكم العام، و أُبعد على أثرها من التراب الجزائري، و في فرنسا تعهدته فيدرالية جبهة التحرير الوطني التي أرسلته لتوها إلى تونس لينظم إلى المنظمة الجزائرية في الخارج، و بمجرد وصوله إلى" القاعدة " في تونس، أُوكلت له مهام الإعلام، وفي نفس الوقت طُلب منه التوجه، مثل باقي الأطباء الآخرين إلى مسؤول الصحة العمومية التونسية، من أجل أن يُعيّن في منصب يُمكنّه من العناية بالمرضى الجزائريين والتونسيين على حد سواء، وبذلك أصبح طبيباً في مستشفى الأمراض العقلية في (منوبه) ثم مُؤسساً للمصلحة النهارية (Service de jour) في مستشفى "شارل نيكول"، حيثُ تابع في هذا الإطار منهجه المُجدد في مجال الطب النفسي[18].

وكان مجيء "فرانتز فانون" إلى تونس هو مجيء مُناضل أثبت التزامه من خلال نشاطه في البليدة، و كمناضل أيضاً مارس فيها مهنته، إلا أن النشاط السياسي أخذ حيزاً مهماً من وقته استجابة لطلب المسؤولين الجزائريين، وبصفته مثقفاً فقد أُسند إليه مهمة الإعلام، وأخذ يشارك في تحرير جريدة المجاهد(الطبعة الفرنسية) بانتظام[19]، ومن جهة أخرى لعب دوراً هاماً في الاتصالات بين جبهة التحرير الوطني والحركات السياسية للبلدان الإفريقية في مرحلة حاسمة من تاريخ القارة.

وفي ديسمبر 1958م أُختير "فرانتز فانون" عضواً في الوفد الجزائري إلى مؤتمر إتحاد الشعوب الإفريقية الذي عُقد في "أكرا" عاصمة غانا الحديثة الاستقلال، حيثُ قابل المكافح القديم " نكروما" الذي أصبح أول رئيس لجمهورية حديثة الاستقلال .

وفي مارس 1959م شارك "فرانتز فانون" في المؤتمر الثاني للكتّاب والفنّانين السود في روما، و في يناير 1960م كان ضمن الوفد الجزائري في المؤتمر الثاني لشعوب أفريقيا الذي أُنعقد في تونس، وهذا بعد فترة نقاهة قصيرة قضاها إثر حادث سيارة وقع له أثناء قيامه بمهمة كلفته بها المنظمة الجزائرية في الحدود المغربية، وفي تلك الأثناء صدر له في باريس كتاب ثان بعنوان:" العام الخامس للثورة الجزائرية"[20]

وفي مارس 1960م عُين مُمثلاً دائماً للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في "أكرا" ، و شارك في مؤتمرات افريقية عديدة و قابل الكثير من المسؤولين السياسيين، و اجتمع ثانيةً بأصدقاء قُدامى بعضهم أضحى قريباً من السلطة والبعض الآخر انضوى تحت لواء المعارضة الناشئة، وشاهد عن كثب ظُروف الانطلاق المأساوية لبعض الدول المستقلة حديثاً، الأمر الذي آلمهُ وتأثر منهُ عميق التأثر، وبذلك أصبح بإمكانه أن يُطلع المسؤولين الجزائريين على القضايا الإفريقية وأن يُساهم في إعداد إستراتيجية جديدة ألا وهي فتح "جبهة جنوبية " تسمح لمجموعات جبهة التحرير الوطني من الدخول إلى التراب الوطني انطلاقاً من مالي[21] .

وخلال هذا الصيف المليء بالنشاط (قام بزيارة لباتريس لومومبا في الكونغو –الزائير حالياً– في الوقت الذي جعلته القلاقل التي أثارها المستعمر القديم يبدوا مهدداً بالخطر)، حينها بدأ يشعر بالمرض يدب في أوصاله، وأثناء مُروره بتونس في ديسمبر 1960م أجرى فحوصات طبية، وكانت نتيجة التشخيص واضحة: سرطان الدم، وهو مرض من الأمراض المُستعصية في ذلك الوقت، ولقد أرسلتهُ المنظمة إلى الاتحاد السوفياتي لاستشارة الأخصائيين، لكنّهُ عاد إلى تونس دون بارقة أمل، ولقد كان "فرانتز فانون" يعرف وهو في الخامسة والثلاثين من عمره بأنّهُ سيموت، إلا أنّ هذا المكافح كان لا يريد لأفكاره وأقواله ولتجربته أن تموت معهُ فأخذ يُقدم عروضاً من تجاربه لضباط جيش التحرير الوطني على الحدود التونسية، ويُملي على زوجته نصوصاً، حيثُ طبعها على الآلة الراقنة شيئاً فشيئاً وقُرئت أجزاء وشذرات على أصدقاء كان يستدعيهم إلى جواره[22]، إذ كانت هذه النصوص تُشكل البدايات الأولى

لكتاب:"معذبو الأرض" الذي فرغ منه في شهر يوليو 1961م، وفي أكتوبر من نفس السنة أرسلتهُ المنظمة–جبهة التحرير الوطنية– إلى مستشفى في الولايات المتحدة الأمريكية، حيثُ كان يُؤمل أن يستفيد من أحدث الأبحاث العلمية للتغلب على مرضه، ثم تبعته زوجته وابنه، وكان سروره عظيماً حين رأى في نهاية شهر نوفمبر النسخة الأولى من كتابه: "معذبو الأرض".

وفي اليوم السادس من كانون الأول– ديسمبر– 1961م مات "فرانتز فانون"، في ولاية "ماريلاند" بالقرب من واشنطن في العيادة التابعة للحكومة الأمريكية تسمى:"المعهد الوطني للصحة ليبديستا" (Bethesda)، ونُقل جُثمانه بطائرة رسمية إلى مقر الحكومة المؤقتة بتونس في الحادي عشرة من الشهر ذاته، ثم نُقل جثمانه مرة أخرى إلى "غارديماو" على الحدود الجزائرية التونسية حيث أُستقبل في ساحة المستشفى التابع لجيش التحرير، ثم نُقل إلى مقبرة الشهداء الكائنة بعين الكرمة بالجزائر، وفي حدود الساعة الرابعة مساءاً وُري "فرانتز فانون" التراب بأرض الجزائر أين تحققت وصيتهُ، عندما طلب من رفاقه في النضال أن يدفنوه إذا مات في أرض الثورة، وهكذا أحبّ "فرانتز فانون" الجزائر وسخرّ كل طاقاته الفكرية والجسدية لخدمة قضيتها، وقد أحبته الجزائر ومنحته اسمها، وحققت أملهُ في الحرية والاستقلال وهزيمة المستعمر، الذي طالما ناضل لكسر شوكته في كل مكان من العالم[23].

2–فرانتز فانون والتوّجه الفكري :

2–1–الفكر المُجدّد :

إنّ ما قدمه "إدوارد سعيد" في كتابه: الثقافة والإمبرياليّة، وفي عدد من حواراته، يشكل إسهاماً أساسياً في دراسة فكر "فرانتز فانون" في الثقافة العربية المعاصرة، إلا أنّه يجب الإشارة إلى كون تلك القراءة قد تميزت بتوظيفها لطريقة "فوكو" في تحليل الخطاب، وبقيامها بنوع من المماثلة بين "فرانتز فانون" و"فوكو"، وإذا كان من المؤكد أنّ "إدوارد سعيد" قد استلهم "فوكو" في كتابه: الاستشراق، وتمكن من تقديم قراءة جديدة ومنتجة لفكر "فرانتز فانون".

إنّ "إدوارد سعيد" يستحضر في قراءته لفرانتز فانون كتابه: معذبو الأرض، ويُقارنه بما قدّمه "ميشيل فوكو" في كتابيه: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، والمراقبة والمعاقبة، حيث قال: "ثمة مسألة مهمة، وهي أنّ كتاب فانون كان نتيجة نضال جماعي، بالمقارنة مع كتاب فوكو(...). فقد تطّرقا لا إلى أنظمة الإقصاء فقط، بل إلى أنظمة التقييد، الصورة الأقوى في كتاب فانون هي صورة المدينة الكولونيالية.. إلخ"[24] ثم إنّ ما خلص إليه من ضرورة إيجاد نظرية جديدة للثقافة تكون ترجمة لحرب التحرير، لا تستطيع طريقة "فوكو" أن تقدّم الوسائل الكافية لها، وذلك بحكم إحجامها عن تقديم البدائل النظرية، وبسبب إعطاء الأولوية للممارسات والنقد على حساب النظرية والتأسيس.

وإنّ معظم القراءات التي أُنجزت حول مدونة "فرانتز فانون" قد توقفت عند كتابه: "معذبو الأرض"، ولم تلتفت إلى بقية كتبه ونصوصه الأخرى، وينطبق ذلك على معظم القراءات التي أُنجزت في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، وكذلك على فلاسفة الاعتراف الذين اهتموا بفرانتز فانون، وبخاصة الفيلسوفين "شارل تايلور" و"إكسال هناث"، فقد أشاد "شارل تايلور" بأهمية كتاب: "معذبو الأرض"[25] في تحليله لسياسة الاعتراف، وأكد على دوره في صياغة مفهوم الهويّة بما هي اعتراف متبادل بين الأنا والآخر، وضرورة التحرّر من الاعتراف المُزيّف أو المُشوّه، وإقراره بأنّ "فرانتز فانون" يُمثل مفتاحاً للحالة الانتقالية، أي الانتقال من الاعتراف المشوّه إلى الاعتراف الحقيقي، وأنّه شخَّص تشخيصاً نقدياً ذلك السلاح الذي يستعمله المستعمر والمتمثل في فرض صورة نمطية على المستعمرين، وبيّن أنّهُ لكي يتحرّر المستعمَر عليه أن يُحرّر نفسه من تلك الصورة الدونيّة والمشوّهة، ويمثل العنف بالوسيلة الفعّالة في هذا التحرر[26]، ولقد تحولت هذه الفكرة الخاصة بالتحرّر من الصور المفروضة والنمطية إلى أداة حيوية في الاتجاهات النسوية والتعدد الثقافي.

2-2-رؤية فرانتز فانون لجدلية "السيد والعبد":

يُعتبر "فرانتز فانون" من المُفكرين الذين أضافوا لجدلية "السيد والعبد" لهيغل، جدلية جديدة هي جدلية "السيد والزنجي"، وجاء ذلك بشكل صريح في عنوان الفصل السابع من كتاب: بشرة سوداء وأقنعة بيضاء[27]، وهو: الزنجي والاعتراف، حيث قسمه إلى قسمين: الأول بعنوان: الزنجي وإدلر، والثاني: الزنجي وهيغل، ويرى "فرانتز فانون" أنّ الإنسان لا يكون إنساناً إلا عندما يفرض نفسه على إنسان آخر بهدف الاعتراف به، وأنّهُ إذا لم يكن هنالك اعتراف حقيقي من قبل الآخر، فإنّ هذا الآخر سيبقى موضوعاً للفعل، ولكن ما لاحظهُ "فرانتز فانون" هو أنّ هذا الانقلاب في العلاقة بين السيد والعبد من خلال الاعتراف، إنّما كان مجرد انتقال من نمط معين إلى نمط آخر، وليس من حياة إلى حياة أخرى، ويشبّه هذا الانتقال بالمريض الذي يُقرّر الطبيب أنه قد شُفي، ولكنّ ذلك لا يمنع من معاودة المرض، وهذا يعني أنّ "فرانتز فانون" يهتم بالحالات التجريبية وبالوقائع العينية أكثر من اهتمامه بالافتراضات النظرية أو المثالية.

إنّ "فرانتز فانون" يتقدم بأطروحة جديدة مؤداها أنّ العبد الزنجي لم يناضل من أجل الحرية، وإنما السيد الأبيض هو الذي اعترف به في لحظة معينة، لذا فإنّ الزنجي لا يُدرك قيمة الحرية، وأنّهُ عندما يناضل من وقت لآخر من أجل الحرية والعدالة، فإنّ الأمر يتعلق دائماً بالحرية والعدالة كما يفهمها الرجل الأبيض، وهذا يعني أنّ "فرانتز فانون" يدعوا إلى نظرة مُغايرة، ليس للأوضاع والمستويات الاجتماعية والثقافية والمنزلة القانونية، وإنّما إلى قلب الفكر نفسه، وذلك اعتماداً على أن الأنا تفرض نفسها بالمعارضة و ذلك حتى تحقق الاعتراف بها وبوجودها.

2-3-العنف عند فرانتز فانون:

إنّ الحديث عن العنف بدأ في القرن التاسع عشر، وأوّل من تحدث عنه ونظّر له هو "جورج سوريل" في كتابه: "تأملات حول العنف "، ولكن قبل ذلك لم يكن ينظر للعنف في ذاته ولذاته، بل كان ينظر إليه كنتيجة فقط، ولقد تناوله المنظرون من جوانب متعددّة منها:

أولا: الجانب النفسي: أي من حيث أن العنف يمثل الخروج عن الحالة الطبيعية والوصول إلى اللامعقول .

ثانيا: الجانب السياسي: من حيث أن العنف هو استخدام القّوة بهدف الإستلاء على السلطة أو الوصول إلى أهداف غير مشروعة، وإن كانت هنا الشرعية وغير الشرعية، غير محددةّ[28]. لقد كان العنف محلّ خلاف بين المنظّرين، فمعجم "لالاند" الفلسفي مثلاً، يُعرّفهُ على أنّهُ الاستخدام غير المشروع أو على الأقل غير الشرعي للقوة، و"جون جاك روسو" يرى أنّ العنف الشرعي هو عنف الدولة التي تكتسب شرعيتها ومشروعيتها منه " العقد الإجتماعي "الذي يقيمه المواطنون فيما بينهم، إذ يتنازلون بموجبه عن حق استخدام العنف ضد بعضهم البعض، والعنف في مجمله ممارسة ملازمة للطبيعة صعب إلغاؤه، ولكن يمكن السيطرة عليه[29].

أمّا "فرانتز فانون" فإنّهُ عبّر بقناعة خالصة عن إيمانه أن العنف هو الخيار الوحيد الذي يجب أن تسلكه الشعوب المقهورة والمغلوب على أمرها للتحرّر من ربقة الاستعمار، وأنّ إرادة الكفاح والتحرّر تستوجب سلوك أسلوب أنجع بعيداً عن الخطاب الأجوف، ولقد اعتبر "فرانتز فانون" أن مُمارسة العنف ضد المستعمر وممارسته الوحشية تطهيراً نفسياً ينهي حالة الإحساس بالخوف والدونّية، ويحقق بلا شك المعادلة الإنسانية في حياة المقهورين والمظلومين، وتحقيق قدر من الثقة بالذات و الإيمان بها[30].

وإنّ حدّة "فرانتز فانون" الرجل المعادي للاستعمار بلغت أقصاها، إلى درجة أنّهُ لم يجد إلا العنف كأسلوب للتعامل معه-الإستعمار-، فهو يقول مثلاً: " العنف هو الباب الوحيد الذي يستدرك منه المستعمر، إنسانيته المفقودة المُهانة، المذلّة، وما إن يقف الرجل المستعمر، موقف من رجل الاحتلال ويهب مزمجراً في وجهه حتى يدرك أنّهُ يفوقه إنسانية "[31]، ويشير "فرانتز فانون" هنا للعنف الجماعي المنظم، لا للعنف الفردي الذي يرفضه رفضاً تاماً، ويُمجّد العنف ويُقدّسهُ بوصفه الحل الذي لا بديل له، فيقول: " العنف وحدهُ الذي يمارسه الشعب، العنف الذي ينظمه ويغرسه قادته، هو الذي يُمكّن الجماهير من فهم الحقائق الاجتماعية، ويزودّها بمفتاح هذه الحقائق "[32]، والعنف الذي قصده "فرانتز فانون"، هو العنف الذي أساسه الإنسان، تلك الطاقة البشرية بحماسها، وليست طاقة السّلاح فقط، كما يذكر انجلز، والذي يعتبر أن انتصار العنف يعتمد على إنتاج الأسلحة، وبالتالي على الطاقة الاقتصادية بصورة عامة، إنّه مجرد رأي طفولي بالنسبة لفانون[33].

ويدعم "فرانتز فانون" حقيقة ميله غير المشروط إلى العنف، في رأيه أنّ الشعب الذي يختار الكفاح المسلّح، يُعلن أنّه لم يعد يثق بالنظام الاستعماري السافر، الذي اتخذ العنف وسيلة للتقتيل والتنكيل بمن سمّاهم فرانتز فانون " معذبوا الأرض "، و إن نظرة "فرانتز فانون" للعنف ماهي إلا ردّة فعل على ممارسات قمعية ومستبدّة، وبوصفه طبيباً لا يكتب العنف وصفة للعلاج، وإنّما يُشخص الحالة ويسعى لتغييرها [34]، ويعلق "إيميه سيزر" عن عنف "فرانتز فانون" فيقول:" إنّ عنفه بدون مفارقة، وهو عنف رجل غير عنيف وأقصد بذلك أنّه عنف العدالة وتطهير النفس والعناد "[35]. ويرى"فرانتز فانون" أن العنف والاستعمار يمضيان جنباً إلى جنب، فالاستعمار لا يستخدم فقط لإخضاع الشعوب المستعمرة، ولكنّه أيضاً يُخرج السكان الأصليين عن السيطرة، ويحوّلهم إلى قوة ضاربة، وكما يعطي الاستعماريون لأنفسهم الحق في القمع والتقتيل، فكذلك للسكان حق الرد واستعمال نفس الأسلوب هذا ما يشير إليه فرانتز فانون، ويقول كذلك بوجود العنف كنتيجة حتمية للإحساس بالفقر والتهميش اللّذين كثيرا ما يكونان سبباً في العديد من الأمراض الاجتماعية والنفسية، ويبدو واضحاً تأثر "فرانتز فانون" الشديد بسارتر في هذا الرأي، هذا الأخير الذي يرى أن الحاجة والندرة من أهم أسباب العنف الاجتماعي من الوجهين التاريخي والاقتصادي .

وإنّ "فرانتز فانون" في كتابه " معذبوا الارض " يتحدث كثيراً عن إفريقيا والإفريقيين، ولكنّهُ لا يتحدث أبداً عن آسيا، ومن هنا يتجلى مدى تأثر "فرانتز فانون" بأرض أجداده التي يحاول بأفكاره وآرائه أن يجد لها حلاً يعينها على التخلص من كل أشكال الاستغلال، كما أن أفكاره في هذا الكتاب جاءت بأسلوب جازم وصارم لا يقبل النقاش[36] وإن قناعة "فرانتز فانون" مُترسخة في التأكيد على الدور الذي تلعبهُ طبقة الفلاحين في إفريقيا، والتي يرى أنّها هي الطبقة الثورية الوحيدة في البلاد، حيثُ أنّهُ مقتنع أن الثورة تبدأ عند طبقة الفلاحين وتُكرّس جذورها، ثم تتسلل شيئا فشيئا إلى المدن دائماً من خلال أولئك الفلاحين المتشردين عن أراضيهم والذين يسكنون الأكواخ في المدن، لأنّ هؤلاء الفلاحين لم يكونوا بعد قد وجدوا فرصة العيش في استقرار، حيث يقول فرانتز فانون في ذلك: " لم يكونوا قد عثروا على عظم يقضمونه في ظل النظام الاستعماري[37]"، وخير دليل على رأي فرانتز فانون هذا، هم سكان الأكواخ في حي القصبة الجزائرية، الذين استطاعوا أن ينقلوا معركة جبهة التحرير الوطني إلى كامل الأحياء، إبّان الثورة التحريرية الجزائرية [38]، ويوافقه في ذلك "إيمي سيزر"، إذ يرى أن الحل الوحيد لإنقاذ أوروبا من الاتهامات المُوجهة إليها وخروجها من الظلمات التي طالما تخبّطت فيها ردحا من الزمن، وهو تخليها كليا عن ذلك النظام البرجوازي الظالم المستبد، الذي طالما داس على كرامة الإنسان، وبالتالي يختفي ذلك النظام الطبقي في المجتمع، ويحل محلّ كل ذلك طبقة واحدة طالما عانت من قهر الطبقة البرجوازية ألا وهي طبقة البروليتاريا[39]. وإنّ "فرانتز فانون" في حديثه عن الثورة والعنف، إنّما يتحدث عن ثورة الشعوب ضد النظام الرأسمالي العالمي انطلاقاً من واقع هذه الشعوب ذاتها، ذلك النظام يدركه "فرانتز فانون" جيداً، إذ يرى أنّهُ يقهر الشعوب وينتزع الإنسانية منها، وإن كان يتحدث بحماس زائد عن العنف وضرورته ، فإنّ ذلك راجع

بالتأكيد إلى خوفه من الاستقلال الصوري الذي رضيت بعض الدول الإفريقية، واقتنعت به وفتحت المجال للبرجوازية لتنهش بلدانها من الداخل، وقد تحدث "فرانتز فانون" في فصل كامل من كتابه: " معذبو الأرض" بعنوان مزالق الشعور القومي"، عن مشاكل الثقافة الوطنية التي كان يخشى أن تنزلق هي الأخرى وراء الثقافات الدخيلة المشوهة وتفقد جوهرها[40].

وإن "فرانتز فانون" يريد في النهاية أن يصل إلى عنف يصهر تلك الطبقات، ويجعلها تذوب في بعضها البعض، لتّتحدد كلّها ضد المستعمر الغاشم، ولهذا عارض الزعيم الهندي "غاندي"، فلقد كان يرى أن "غاندي" قاد صراعاً جماعياً ضد الاستعمار ولكنّهُ في الحقيقة صراع بدون عنف، فهو بالتالي صراع غير أصيل، لأنّه كان مقتنعاً بفعالية العنف الذي كان في نفس الوقت يرعبه، ولقد حاول "فرانتز فانون" في أيّامه الأخيرة من حياته أن يُجسد لذلك العنف أو للكفاح المّسلح من خلال فكرته حول تكوين جبهة جنوبية لتدعيم الثورة الجزائرية، ومن هنا تتجلى قناعات "فرانتز فانون" في أنّها قناعات يعقبها تطبيق عملي لا مجرد شعارات جوفاء، ولهذا فإنّهُ وبفكرته حول العنف سيبقى حياّ، حيث يقول:"والعنف وحده، العنف الذي يمارسه الشعب، العنف المنظم الواعي الذي يُنيره قادة الثورة هو الذي يُتيح للجماهير أن تحلّل الواقع الاجتماعي و أن تملك مفاتيحه[41]".

- **الهوامش:**

[1]- جزر الكرائيب :نسبة إلى سكانها الأوائل الهنود الكرائيب.

[2]- فرانتز فانون:سوسويولوجية ثورة،ترجمة ذوقان قرقوط ط1،دار الطليعة والنشر، بيروت ،لبنان،1970،ص5.

[3]- آمنة أبو حجر،الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم،ط1،دار أسامة للنشروالتوزيع،الأردن،عمان،2008،ص465،464.

[4]- المرجع نفسه،ص464-465.

[5]- المرجع نفسه،ص465.

[6]- محمد شرقي: المجتمع الجزائري في تصور فرانتز فانون(1953-1961)،ط1،مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة، 2008م، ص163.

[7]- الطاهر زبيري:المثقفون والثورة،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، 1995م، ص139.

[8]- المرجع نفسه،ص139.

[9]- غادة السمان:فرانتز فانون والازدواجية والاستعمار جنوب إفريقية(حالة دراسية)،جامعةبيزريت فلسطين،2006م،ص6.

[10]- محمد الميلي:فرانتز فانون الثورة الجزائرية،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،بدون تاريخ،ص10.

[11]- الطاهر زبيري:المثقفون والثورة،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، 1995م، ص139.

[12]- سعاد شيخاني: فرانتز فانون (رؤية لدور الكاتب والأدب الإفريقي باللغة الفرنسية)،ط1،معهد الإنماء العربي، بيروت 1982، ص9.

[13]- فرانتزفانون، "معذبو الأرض"، ترجمة :ك.شولي،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2007 ص7.

[14] المرجع نفسه، ص7.

[15]- المرجع نفسه، ص8.

[16]- المرجع نفسه، ص8.

[17]- المرجع نفسه، ص9.

[18]- المرجع نفسه، ص11.

[19]- نشرت بعض المقالات التي نسبت إليه –فرانز فانون- فيما بعد في كتاب "من أجل الثورة الإفريقية " الصادر في باريس، دارماسبيرو، 1964م، (لم تكن المقالات المنشورة في جريد المجاهد تحمل أي توقيع، بل غالباً ما كانت عملا جماعياً)

[20]- فرانز فانون ،"العام الخامس من للثورة الجزائرية"، ترجمة: ذوقان قرقوط ، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2004م.

[21]- فرانزفانون، "معذبو الأرض"،ترجمة :ك.شولي:الجزائر ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،وحدة الرغاية، 2007م،ص12.

[22]- فرانزفانون، "معذبو الأرض"، ترجمة: ك.شولي: الجزائر ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،وحدة الرغاية، 2007م،ص13.

[23] عبد الكريم حساني:مداخلة أثناء الملتقى الوطني الثالث:فرانتز فانون،الإستعمارجريمة ضد الإنسانية،مديرية الثقافة لولاية الطارف،مطبعة المعارف،عنابة،ص98،97.

[24]– إدوارد سعيد، " السلطة والسياسة والثقافة"، ترجمة:نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، لبنان 2008م،ص64.

[25]– فرانز فانون ،معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار الطليعة، بيروت، ط5، 1984، والطبعة الأولى 1963.

[26]– فرانز فانون ،معذبو الأرض،ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار الطليعة، بيروت، ط5، 1984، والطبعة الأولى 1963،ص16.

[27] –فرانز فانون ، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي، 2004،ص175.

[28]–عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، ج4 ،ط4 بيروت ، لبنان ،1999 ، ص ص، 255–256 .

[29]–المرجع نفسه ، ص 256.

[30]– فرانتز فانون، سوسيولوجية ثورة،ترجمة: ذوقان قرقوط، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص8.

[31]– فرانتز فانون، سوسيولوجية ثورة،ترجمة: ذوقان قرقوط، ط1، دار الطليعة، بيروت، ص8.

[32]– فرانتز فانون، معذبو الأرض،ترجمة السيدة منور، موفم للنشر، الشركة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1990م، ص42.

[33]– جاك ووديس،نظريات حديثة حول الثورة، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت 1978م، ص9.

[34]– فرانتز فانون، معذبو الأرض،ترجمة السيدة منوّر، موفم للنشر، الشركة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر1990م، ص.ص 217–278.

[35]– دافيد كوت، فرانتز فانون، ترجمة:عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،، ط1، بيروت1971م،ص142.

[36]– دافيد كوت، فرانتز فانون، ترجمة:عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،، ط1، بيروت1971م، ص115.

[37]– المرجع نفسه، ص123.

[38]– المرجع نفسه، ص124.

[39]– ايمي سيزر،خطاب حول الإستدمار، ترجمة:ميشال سطوف، منشوراتANEP،الجزائر2007م، ص60.

[40]– فرانتز فانون، معذبو الأرض،ترجمة السيدة منور، موفم للنشر، الشركة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر1990م، ص115.

[41]– المرجع نفسه، ص 114.